

تفسير السعدي

@ 207 @ خير) ^ . ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى ، أن الصلح بين من بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء ، أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه ، لما فيه من الإصلاح ، وبقاء الألفة ، والاتصاف بصفة السماح . وهو جائز في جميع الأشياء ، إلا إذا أحل حراما ، أو حرم حلالا ، فإنه لا يكون صلحا ، وإنما يكون جورا . واعلم أن كل حكم من الأحكام ، لا يتم ، ولا يكمل ، إلا بوجود مقتضيه ، وانتفاء موانعه . فمن ذلك ، هذا الحكم الكبير ، الذي هو الصلح . فذكر تعالى المقتضي لذلك ، ونبه على أنه خير ، والخير كل عامل يطلبه ، ويرغب فيه . فإن كان مع ذلك قد أمر الله به ، وحث عليه ازداد المؤمن طلبا له ، ورغبة فيه . وذكر المانع بقوله : ^ (وأحضرت الأنفس الشح) ^ أي : جبلت النفوس على الشح ، وهو : عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان ، والحرص على الحق الذي له . فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً . أي ينبغي لكم ، أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء ، من نفوسكم ، وتستبدلوا به ضده وهو : السماحة ، وهو بذل الحق الذي عليك ، والاعتناع ببعض الحق الذي لك . فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن ، سهل حينئذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله ، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب . بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه ، فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة ، لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله ، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه . فإن كان خصمه مثله ، اشتد الأمر . ثم قال : ^ (وإن تحسنوا وتتقوا) ^ أي : تحسنوا في عبادة الخالق ، بأن يعبد العبد ربه ، كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه ، فإنه يراه . وتحسنوا إلى المخلوقين ، بجميع طرق الإحسان ، من نفع بمال ، أو علم ، أو جاه ، أو غير ذلك . ^ (وتتقوا) ^ ، بفعل جميع المأمورات ، وترك جميع المحظورات . أو تحسنوا بفعل المأمور ، وتتقوا بترك المحظور . ^ (فإن الله كان بما تعملون خبيراً) ^ قد أحاط به ، علماً وخبراً ، بظاهره وباطنه ، فيحفظه لكم ، ويجازيكم عليه ، أتم الجزاء . ^ (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما) ^ يخبر تعالى : أن الأزواج لا يستطيعون ، وليس في قدرتهم العدل التام بين النساء . وذلك ، لأن العدل : يستلزم وجود المحبة على السواء ، والداعي على السواء ، والميل في القلب إليهن على السواء ، ثم العمل بمقتضى ذلك . وهذا متعذر غير ممكن ، فلذلك عفا الله ، عما لا يستطيع ونهى عما هو ممكن بقوله : ^ (فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) ^ أي : لا تميلوا ميلاً كثيراً ، بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة . بل افعلوا ما هو باستطاعتكم في العدل . فالنفقة والكسوة ، والقسم ونحوها ، عليكم أن

تعدلوا بينهم فيها . بخلاف الحب ، والوطء ونحو ذلك ، فإن الزوجة ، إذا ترك زوجها ، ما
يجب لها ، صارت كالمعلقة ، التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للزوج ، ولا ذات زوج ، يقوم
بحقوقها . ^ (وإن تصلحوا) ^ ما بينكم وبين زوجاتكم . وبإيجاب أنفسكم على فعل ما لا
تهواه النفس ، احتسابا وقيامًا بحق الزوجة . وتصلحوا أيضا ، فيما بينكم وبين الناس .
وتصلحوا أيضا بين الناس ، فيما تنازعوا فيه . وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى
الصلح مطلقا كما تقدم . ^ (وتنفوا) ^ بفعل المأمور وترك المحذور ، والصبر على
المقدور . ^ (فإن اِياكم كان عفورا رحيمًا) ^ يغفر ما صدر منكم ، من الذنوب ، والتقصير في
الحق الواجب ، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتموهن . ^ (وإن يتفرقا يغن اِياكم كلا من
سعته وكان اِياكم واسعا حكيمًا) ^ هذه الحالة الثالثة بين الزوجين ، إذا تعذر الاتفاق ،
فإنه لا بأس بالفراق . فقال : ^ (وإن يتفرقا) ^ أي : بطلاق ، أو فسخ ، أو خلع ، أو غير
ذلك . ^ (يغن اِياكم كلا) ^ من الزوجين ^ (من سعته) ^ أي : من فضله ، وإحسانه الواسع
الشامل . فيغني الزوج بزوجة ، خير له منها ، ويغنيها من فضله . وإن انقطع نصيبها من
زوجها ، فإن رزقها على المتكفل بأرزاق جميع الخلق ، القائم بمصالحهم ، ولعل اِياكم يرزقها
، زوجا خيرا منه . ^ (وكان اِياكم واسعا) ^ أي : كثير الفضل ، واسع الرحمة . وصلت رحمته
وإحسانه ، إلى حيث وصل إليه علمه . وكان مع ذلك ^ (حكيمًا) ^ أي : يعطي بحكمته ،
ويمنع لحكمته . فإذا اقتضت حكمته منع بعض عبادته ، من إحسانه ، بسبب في العبد ، لا يستحق
معه الإحسان حرمه ، عدلا وحكمة . ^ (و اِياكم ما في السماوات وما في الأرض ولقد وصينا الذين
أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا اِياكم) ^ وإن تكفروا فإن اِياكم ما في السماوات وما في
الأرض وكان اِياكم غنيا حميدا * و اِياكم ما في السماوات وما في الأرض وكفى با اِياكم وكبرا) ^ يخبر
تعالى ، عن عموم ملكه العظيم الواسع ، المستلزم تدبيره ، بجميع أنواع التدبير ، وتصرفه
بأنواع التصريف ، قدرا ، وشرعا . فتصرفه الشرعي ، أن وصى الأولين والآخرين ، أهل الكتب
السابقة واللاحقة بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي ، وتشريع الأحكام ، والمجازاة لمن قام
بهذه الوصية ، بالثواب ، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها ، بأليم العذاب . ولهذا قال : ^
(وإن تكفروا) ^ بأن تتركوا تقوى اِياكم ، وتشركوا با اِياكم ما لم ينزل به عليكم سلطانا ،
فإنكم لا تضرون بذلك ، إلا أنفسكم ، ولا تضرون اِياكم شيئا ، ولا تنقصون ملكه . وله عبيد خير
منكم ، وأعظم ، وأكثر ، مطيعون له ، خاضعون لأمره . ولهذا رتب على ذلك قوله : ^ (وإن
تكفروا فإن اِياكم ما في السموات وما في الأرض وكان اِياكم غنيا حميدا) ^ له الجود الكامل
والإحسان